مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية

اسم المقال: نظم المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية عصر المماليك نموذجاً
اسم الكاتب: أ.م.د. فوزي مصطفى
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2701
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 08:54 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

نُظم المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية
عصر المماليك نموذجاً

أ. م. د فوزي مصطفى*

الملخص

يتحدث هذا البحث عن مفخرة من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية تتعلق بالكتب والمكتبات، من خلال عصر المماليك الذي توافر فيه حب العلم والمعرفة، والسعي لاقتناء الكتب والاعتناء بها.

فبيَّن هذا البحث كيف سارت المكتبات في ذلك العصر وفق أنظمة دقيقة تعلقت بعدة أمور، منها: أنظمة تزويد المكتبة بالكتب، و يتم ذلك عبر شراء الكتب، ونسخها؛ أي الاستكثار من أعدادها، وإهداء أهل العلم والخير، ووقف الكتب من الواقفين.

وتعلَّقت أنظمة المكتبات أيضاً بالإجراءات الفنية التي شكَّلت خدمات للكتاب والقرَّاء من خلال الفهرسة والتصنيف، وإجراءات تجليد الكتب وترميمها، ووُجدت لأجل ذلك أسواق خاصة بهذا الغرض. وكان من ضمن ذلك نظام محكم يحدد بدقة الاطلاع على الكتب أو استعارتها.

وتعلقت الأنظمة السابقة بنظام إداري خاص بموظفي المكتبة: الخازن، والمناول، والناظر، والورَّاق، وغير هؤلاء.

واتصف نظام توزع المكتبات بالشمولية؛ إذ توزعت على كل مراكز العلم: من مدرسة، ومسجد، ومركز صوفي، وترب، ومنازل.

* قسم التاريخ – جامعة دمشق.

Library Systems in Arab and Islamic Civilization The Mamluk era is a model

D. Fawzi Mustafa*

Summary

This research speaks of the pride of the proud Arab Islamic civilization related to books and libraries, through the era of the Mamluk in which the love of science and knowledge, and the pursuit of the acquisition of books and care.

In this research, how libraries went on at that time according to precise regulations related to several things, including: systems to supply the library with books, and this was through the purchase of books, and copied any number of scattering, and giving the people of science and good, and stop the books of those standing.

Library systems also related to the technical procedures that formed services for writers and readers through cataloging and classification, book binding and restoration procedures, and found special markets for that purpose. This included an elaborate system that accurately defined access to or borrowing of books.

The previous regulations related to a special administrative system for the library staff: the storekeeper, the handman, the beholder, the papers, and others.

The system of library distribution was comprehensive, distributed to all science centers: schools, mosques, Sufi centers, schools and houses.

* Department of History - Damascus University.

المقدمة:

بدأ تاريخ المكتبات العربية الإسلامية لمَّا توافرت مواد الكتابة في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، وفي القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي بدأت حركة التأليف العربية، وبدأت صناعة الورق، وهذا كله كان له الأثر الكبير في نمو المكتبة العربية الإسلامية [1].

ومنذ ذلك الوقت أقبل العرب على اقتناء الكتب إقبالاً منقطع النظير، وبدأت تظهر المكتبات، وتكثر أعداد كتبها حتى وصل عدد مكتبة الخليفة العزيز الفاطمي (نزار العزيز بالله بن المعز لدين الله بن المنصور 365 – 386هـ /975 – 996م) في القاهرة إلى 1600000 مجلد، وهذا ما دفع المستشرقة الشهيرة زيغريد هونكه للقول: «والواقع إن تاجر الكتب لم يُعرف كوسيط لنقل الثقافة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة، قبل أن يفعل العرب ذلك»[2].

وعن مكتبة القاهرة الفاطمية كتب جربرت فون أورياك متحسراً (الذي ارتقى كرسي البابوية في روما باسم البابا سلفستر الثاني 999 – 1003م): «إنه لمن المعلوم تماماً أنه ليس ثمة أحد في روما له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة، وأنى لنا أن نُعلِّم الناس ونحن في حاجة لمن يعلمنا، إن فاقد الشيء لا يعطيه»[3].

وفي عصر المماليك توافر حب العلماء و العلم والمعرفة، وسعي طلبة العلم لاقتناء الكتب بشرائها أو نسخها أو استعارتها، وظهر الاعتناء بالكتب فنياً من حيث النسخ والتجليد والتذهيب والحفظ، وانتشار الأسواق المختصة بتجارتها.

---

[1] عبد الستار الحلوجي: دراسات في الكتب والمكتبات، مكتبة صباح، جدة، ط1، 1988م، ص17. 24.

[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ط9، 2000م، ص387، 392.

[3] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص353، 354.

فحظي الكتاب بالمنزلة الراقية والعظيمة في قلوب أهل العلم بمختلف مشاربهم وميولهم الفكرية، فنال كثيراً من الاهتمام والعناية، فلم تقتصر العناية به على إنشاء المكتبات العامة، بل سعى كثيرون إلى إنشاء مكتبات كبيرة في منازلهم (سيأتي الحديث عنها تحت عنوان: المكتبات الخاصة).

وتم الاعتناء بالمكتبات من خلال نُظم متعددة، بدءاً بأنظمة التزويد من شراء ونسخ وإهداء ووقف إلى الإجراءات الفنية والتجليد والترميم، كما خضعت الكتب ضمن المكتبات إلى نظام محكم للاطلاع والإعارة، وسار ذلك كله عن طريق الموظفين العاملين في المكتبات من خازن ومناول وناظر وورَّاق، وهذا كله جعل هذه المكتبات تتنوع وتتوزع على كل مراكز العلم: من مدرسة، ومسجد، ومركز، صوفي، وترب، ومنازل.

أولاً: نظام تزويد المكتبات بالكتب:

وهي عملية جوهرية في أي مكتبة من المكتبات؛ لأن الكتب _ بكل بساطة _ هي عماد المكتبات وأصلها، وكانت تتم عبر الطرق الآتية:

1- طريقة الشراء:

عرف ذلك العصر مهنة (دلَّالي الكتب)، وقد تكلم السبكي عنهم فقال: «ألَّا يبيع كتب الدين لمن يعلم أنه يضيعها، أو ينظرها لانتقادها والطعن عليها، وألَّا يبيع من كتب أهل البدع والأهواء، وكتب المنجِّمين، والكتب المكذوبة ...»[4].

وكان الشراء يتم بعدة وسائل، منها عن طريق قيام طلاب العلم بشراء الكتب[5]، وأفضل مكان تُشترى منه الكتب ويتم تزويد المكتبات بها هو أسواق الكتب، والأمثلة عليه

---

[4] تاج الدين عبد الوهاب السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، تح: محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، دار الكتاب العربي، مصر، ط1، 1948م، ص110.

[5] بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تح: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، ط1، 2008م، ص116.

كثيرة في عصر المماليك: ففي دمشق مثلاً وجدت عدة أسواق للكتب، كسوق الكتب الذي كان بالكلَّاسة قرب الجامع الأموي، وسوق الكتب عند باب البريد[6]. وسوق الورَّاقيين في القاهرة بجوار مدرسة الأشرف برسباي[7]، وسوق الكتبيين الرئيسي في القاهرة بجوار المدرسة الصالحية[8].

وقد عمل كثير من علماء ذلك العصر ببيع الكتب، ومنهم محمد بن يوسف بن سليمان الكتبي الأمشاطي (ت 833هـ/ 1430م)، وكان من خبراء ذلك العصر بالكتب[9]، وابن موسى محمد بن علي بن موسى القاهري الماوردي (ت 870هـ/ 1465م) الذي كان ورَّاقاً[10].

ومن أوضح الأمثلة على تزويد المكتبات بالكتب عن طريق الشراء مكتبة مدرسة جمال الدين محمود الإستادار الذي اشترى خزانة كتب أحد القضاة لهذه المدرسة، وفيها حوالي أربعة آلاف مجلد[11]. وفعل ذلك واقف المدرسة الضيائية بدمشق؛ إذ كان يعمل على تزويد مكتبة هذه المدرسة بالشراء والنسخ والهبات[12].

---

[6] عمر رضا كحالة: العلوم العملية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق، 1972م، ص280.

[7] السيد السيد النشار: تاريخ المكتبات، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993م، ص161.

[8] أحمد بن علي المقريزي: خطط المقريزي، تح: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2003م، مج3، ص338– 339. إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتبة التجارية، بيروت، ج4، ص44– 61– 95.

[9] شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج10، ص94.

[10] السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص222.

[11] شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جار الحق، مطبعة المدني، ج1 ص39– 40.

[12] يوسف العش: دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، تر: نزار أباظة، محمد صباغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص244.

2- طريقة النسخ:

كانت عملية نسخ الكتب في ذلك العصر توازي عملية الطباعة اليوم، فكلاهما غايته تكثير عدد نسخ الكتاب.

ومما يدل على وجود مهنة النسخ أقوال عديدة لعلماء ذلك العصر، ومنهم ابن طولون الذي يقول عن الناسخ: «من النساخ من لا يتقي الله، ويكتب على عجلة، أو يحذف في أثناء الكتاب شيئاً، رغبة في إنجازه، إذا كان قد استؤجر على نسخة جملة، وهذا خائن لله تعالى في تضييع العلم»[13].

ويقول ابن خلدون؛ وهو من أعلام عصر المماليك: «وأمَّا الكتابة وما يتبعها من الوراقة، فهي حافظةٌ على الإنسان حاجته، ومقيِّدةٌ لها عن النسيان ومبلغةٌ ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلِّدةٌ نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعةٌ رتب الوجود للمعاني»[14]. ومنهم ابن جماعة الذي فصَّل في ذكر آداب النسخ والنُسَّاخ[15].

ويقول السبكي عن دار الحديث الأشرفية: «ويصرف في شراء ورق وآلات النسخ من مركب وأقلام ودوي وكراسي»[16]، وتذكر وثيقة قاني باي الرماح: «وكل من حضر إليه من طلبة العلم الشريف يمكنه الانتفاع بما يحتاج إليه من الكتب المذكورة في نسخ أو مقابلة أو مطالعة، إلى أن ينهي حاجته ثم يرد الكتاب إلى محله»[17].

---

[13] شمس الدين محمد بن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب، تح: محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ص178. السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص103.

[14] عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، ط2، 1988م، ص508.

[15] ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص116- 124.

[16] تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي: فتاوى السبكي، تح: حسام الدين القدسي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م، ج2، ص110.

[17] النشار: تاريخ المكتبات، ص202.

وكان لنسخ الكتب طريقتان:

الأولى: تكون بوجود عدد من النُسَّاخ، فيملي عليهم شخص آخر، وعند الانتهاء تجري المقابلة على النسخ.

الثانية: تكون بأن ينسخ الناسخ من المخطوط مباشرة دون مساعدة أحد، وبعد الانتهاء من النسخ يراجعها غيره للتأكد من صحة ما نُسخ[18].

ومن الذين عملوا في النسخ عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم الحلبي (ت660هـ/ 1262م) الذي نسخ كتباً تعادل ثلاث خزائن[19]، وعمر بن حسن بن عمر بن حبيب (ت726هـ/ 1325م) الدمشقي المحدِّث محتسب حلب، وقد نسخ كثيراً، وعمل لنفسه فهرساً حافلاً[20]، وكذلك شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت733هـ/ 1332م)؛ إذ كتب الكثير، وكتب البخاري ثماني مرَّات، وكان يكتب النسخة ويقابلها[21]، وأبو العباس العسكري الأندرشي الصوفي شيخ العربية بالشام (ت750هـ/ 1349م)، نسخ بخطِّه كتاب (تهذيب الكمال) للمزي واختصره[22]، وفاطمة بنت الحافظ علم الدين أبو

---

[18] محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1981م، ص175– 176.

[19] ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم الأدباء، تح: عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1999م، ج6، ص9.

[20] صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1998م، ج3، ص60– 62. الدرر الكامنة: ابن حجر، ج3، ص234.

[21] اسماعيل بن كثير: البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب للطباعة، الرياض، ط2، 2003م، ج18، ص359.

[22] الصفدي: أعيان العصر، ج1، ص216.

محمد البرزالي، فقد نسخت البخاري في ثلاثة عشر مجلداً، وأصبحت نسختها أصلاً معتمداً يكتب منها للناس[23].

3_ طريقة الإهداء:

وهي طريقة تشابه طرق الإهداء اليوم، ويهديها أصحاب الخير أو مؤلفو الكتب أنفسهم، ومن ذلك قيام كاتب السر الشيخ ناصر الدين محمد البارزي (ت843هـ/ 1439م) بإهداء خمسمئة مجلد للجامع المؤيدي[24]، وقيام الشاه إسماعيل الصفوي بإهداء كتاب (تاريخ التتار) للمكتبة السلطانية الغورية مع مجموعة من الكتب[25]، وقيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإرسال كتب كهدية بمناسبة افتتاح خانقاه في الطريق بين دمشق وحماة[26].

4_ طريقة الوقف:

وهو طريقة لتزويد المكتبات بالكتب، ولا يوجد مكتبة في مصر والشام في عصر المماليك إلا وأُوقف عليها الكتب، سواء مكتبات المساجد أم المدارس، وهذا كله مبسوط في كتاب الخطط للمقريزي فيما يتعلق بمصر، وكتاب الدارس للنعيمي فيما يتعلق بالشام.

---

[23] ابن كثير: البداية والنهاية، ج18، ص413.

[24] المقريزي: خطط المقريزي، مح4، ج1، ص343.

[25] عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغوري صفحات في تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2010م، ص43.

[26] أبو الفداء اسماعيل بن علي: المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج2، ج7، ص110.

ومن الذين أوقفوا كتبهم يحيى بن عبد الوهاب الشافعي (ت721هـ/ 1321م)، وقد أوقف كتبه بالجامع الظاهري[27]، وأوقف الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير نحو خمسمئة مجلد على خزانة الكتب بالجامع الحاكمي[28].

ثانياً: الإجراءات الفنية:

سارت أمور المكتبات في عصر المماليك وفق نظام محدد تبعاً لشروط الواقف؛ لكونها تمثل جزءاً مهماً من الأداة التعليمية على مدى العصرين الأيوبي والمملوكي[29]، فكانت خزانة الكتب تُقسم إلى رفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وكان فيها إطارات كبيرة وصغيرة مصنوعة من الخشب، واحتوت كل خزانة مجموعة من الكتب لُصق عليها ورقة مترجمة ملصقة على كل باب منها، وكانت المصاحف الكبيرة توضع في خزانة خاصة جانب المحراب في المدرسة، وأُثبتت الكتب في سجل على هيئة كتاب يتضمن قوائم الكتب مرتبة بعناية بحسب الموضوعات أو أسماء المؤلفين[30].

والإجراءات الفنية هي خدمات للكتاب والقرَّاء، ولأجل ذلك كانت هناك وظيفة أمين المكتبة والخازن[31] الذي يتسلم الكتب ويسجلها ويحتفظ بنسخة عنده ونسخة عند الناظر، من أجل الجرد والمراجعة، وهنا تذكر وثيقة الغوري عن أمين المكتبة أو الخازن:

«ويسلمه جميع ما فيها من الكتب من تفسير وحديث وفقه ولغة ومعان وبيان وبديع وأصول فقه وغيرها، ويجعل الناظر نسخة عنده»[32].

---

[27] ابن حجر: الدرر الكامنة، ج5، ص197.

[28] النشار: تاريخ المكتبات، ص168.

[29] عبد العظيم رمضان: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، صفحة ومقالة ومقال مخزنهم، ص203.

[30] تاريخ المدارس في مصر الإسلامية: رمضان، ص219.

[31] النشار: تاريخ المكتبات، 175. العش: دور الكتب العربية، ص342.

وذكرت المصادر أسماء أمناء المكتبات، ومن الأمثلة عليهم الشيخ عثمان فخر الدين البكري التلاوي الذي كان خازن مكتبة المدرسة المحمودية[33].

وعرفت مكتبات عصر المماليك الفهرسة، ومن مفهرسي المكتبات العالم الشهير ابن حجر العسقلاني، ومن المكتبات التي فهرسها مكتبة المدرسة المحمودية، فعمل لها فهرساً على الحروف، وعلى أسماء التصانيف، وآخر على الفنون[34].

ووُجد في وثيقة الشيخ عبد الله الزواوي التي ترجع لعام (878هـ/ 1473م) فهرساً لمكتبته التي أوقفها في الجامع الأزهر[35].

ومن أساليب خدمة المكتبات: التصنيف؛ وهو تجميع الكتب ذات المواضيع الواحدة في مكان واحد؛ لتسهيل تناولها من قبل روَّاد المكتبة والعاملين فيها، فمثلاً قرأ أبو شامة المقدسي فهرس كتب مكتبة فقال: «فوجدتها سبعمئة وواحداً وستين مجلداً، في علوم القرآن مئة وأربعون، الحديث تسعة عشر، الفقه تسعة وثلاثون، اللغة مئة وثلاثة وأربعون، الشعر مئة واثنان وعشرون، النحو والتصريف مئة وخمسة وسبعون...»[36].

وعندما أرَّخ أبو شامة نفسه لخراب مكتبة قال: «واختلط أدبيها بنجوميها، وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها»[37]، وهذا يدل بوضوح على أن هذه المكتبة كانت مصنفة حسب الموضوع والاختصاص.

---

[32] النشار: تاريخ المكتبات، ص176. العش: دور الكتب العربية، ص339.

[33] السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص143- 144.

[34] النشار: تاريخ المكتبات، ص283.

[35] النشار: تاريخ المكتبات، ص180.

[36] أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل: الذيل على الروضتين، تح: عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط2، 1974م، 98.

[37] أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1997م، ج2، ص445.

ومن أساليب خدمة الكتب وضعها في خزن وترتيبها حسب الأهمية، يقول ابن جماعة: «ويراعى الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصنفها وجلالتها، فيضع الأشرف أعلى الكل، ثم يراعي التدريج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار، أو وتد في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم كتب الحديث الصرف كصحيح مسلم، ثم تفسير القرآن ... فإن استوى كتابان في فنٍ أعلى أكثرهما قرآناً أو حديثاً، فإن استويا فبجلالة المصنِّف، فإن استويا فأقدمهما كتابةً وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحهما ... ولا يضع ذوات القطع الكبيرة فوق ذوات القطع الصغيرة، كيلا يكثر تساقطها»[38].

ثالثاً: التجليد والترميم:

من أكبر الأدلة على فخامة فن التجليد في عصر المماليك ما قام به السلطان العثماني سليم الأول لما دخل دمشق؛ إذ أخذ علماء التجليد إلى عاصمته استانبول، فتعلَّم الأتراك هذا الفن وأبدعوا فيه[39].

لذلك تمتلئ مكتبات العالم بالمجلدات الفخمة التجليد التي تعود إلى عصر المماليك، ذلك العصر الذي وُجدت فيه أسواق خاصة لهذا الغرض[40]، والذي تحول فيه هذا العمل إلى حرفة ومهنة، فمن الذين عملوا بالتجليد العالم عمر بن محمد بن إبراهيم الكتبي (ت

[38] ابن جماعة: تذكرة السامع، ص118. عبد الباسط بن موسى العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد، المكتبة العربية، دمشق، ط1، ص131.

[39] إياد خالد طباع: المخطوطات الدمشقية، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2009م، ص164.

[40] كحالة: العلوم العملية، ص279.

844هـ/ 1440م)[41]، ومحمد بن أحمد علي الأبياري المعروف بابن السدار (ت884هـ/ 1479م) الذي جمع بين الكتابة والتجليد والتذهيب[42].

ورافقت عملية التجليد عملية أخرى مهمة هي عملية الترميم، يقول السبكي عن خازن كتب دار الحديث الأشرفية: «وحُقَّ عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها، عند احتياجها للحبك»[43]، وذكرت وثيقة فرج بن برقوق: «على أن يتولى حفظها ونفضها ويتفقد أحوالها بالإصلاح ووضعها بمواضعها بالخزانة المرصدة»[44]، وفي وثيقة أزبك من ططخ: «على أن يتولى أجزاء الكتب المذكورة، ونفضها من الغبار، وتعهدها كالعادة وصونها عما يفسدها»[45].

رابعاً: نظام الاطلاع والإعارة:

وُجد نظام إعارة الكتب في عصر المماليك، فمثلاً وُجد كتاب موقوف في المدرسة العمرية في دمشق مكتوب عليه: «هذا الكتاب عن الفقير عبده تعالى رمضان بن موسى الحنفي عارية من الكتب الموقوفة بمدرسة أبي عمر»[46].

ونصَّت وثيقة وقف جمال الدين الإستادار على: «من حضر من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكورة لاستعارة شيء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلمه إليه، إن كان ثقة، وإن كان ممن يخشى منه منعه إلا أن يضمنه ثقة من أهل الخانقاه المذكورة،

---

[41] السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص115.

[42] السخاوي: الضوء اللامع، ج7، ص22.

[43] السبكي: معيد النعم، ص90.

[44] مهندس صالح لمعي مصطفى: الوثائق والعمارة، دار النهضة العربية، ص29.

[45] النشار: تاريخ المكتبات، ص191.

[46] العش: دور الكتب العربية، ص406.

ولا يقر شيئاً من الكتب المستعارة بيد المستعير أكثر من شهر واحد من حين استعارته، بل يأخذه منه بعد مضي الشهر»[47].

وفي وثيقة مملوكية تم طلب تسجيل اسم المستعير والكتاب المعار في سجل خاص، وذُكر فيها أن على المعير أو الخازن: «كتابة اسم من يطلب منه كراساً ويأخذه منه ثم إن أعاده مسح اسمه بحبر يشتريه من عند نفسه»[48]،

وذكر السبكي قضية الرهن على إعارة الكتب، ومما ذكره: «وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته ...»[49]، وفي وثيقة وقف المدرسة الضيائية أن «لا يعار إلا برهن، فإن أُعير بغير رهن فكفارته رده إلى مقره بعد قضاء الحاجة منه»[50]. ومن المكتبات التي اشترطت الإعارة الخارجية مكتبة المدرسة الأشرفية شعبان بن حسين، «أن لا يخرج من المكان المذكور إلا برهن يحرز قيمته»[51].

وبعضهم جعل مكتبته الشخصية مجالاً للإعارة مثل صالح بن عمر بن رسلان القاضي شيخ الإسلام البلقيني (ت868هـ/ 1463م)[52]، وقد كان الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (ت743هـ/ 1333م) «يعير كتبه لأهل البلد وغيرهم من أهل البلدان من يعرف ومن لا يعرف»[53]، وكذلك سليمان بن يوسف بن مفلح الياسوفي (ت789هـ/

[47] النشار: تاريخ المكتبات، ص206.

[48] النشار: تاريخ المكتبات، ص205.

[49] السبكي: معيد النعم، ص90.

[50] العش: دور الكتب العربية، ص250.

[51] النشار: تاريخ المكتبات، ص206.

[52] السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص312– 313.

[53] ابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص156.

1387م) فقد كان يُعين الطلبة ، ولاسيما «أهل الحديث على مقاصدهم بجاهه وكتبه وماله»[54].

وبيَّنت وثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق بعضاً من قيود الإعارة الخارجية، منها: «من حضر إليه _ أي لخازن الكتب _ يطلب شيئاً من ذلك فإن كان أهلاً لمطالعة ذلك، والاشتغال به، وكان من أهل المكان، وممن يوثق به، دفعه إليه، وأخذ منه، فإذا أعاده إلي، دفع إليه خطه، ولا يمكنه التأخير مدة بعيدة يخشى منها حصول النسيان، بل يتعهد بالسؤال، وأخذ ما أخذه منه، فإذا طلب غيره أجابه لذلك، وفعل كما فعل أولاً، وإن كان الطالب من خارج المكان لا يعطيه شيئاً من ذلك»[55].

وهناك من لم يمنع الإعارة الخارجية فقط، بل حدَّ من الاطلاع الداخلي أيضاً، وذلك على من عُرف عنه الإهمال والتفريط، إذ تنصَّ وثيقة على أنه: «لا يخرج من ذلك شيئاً من الأشياء من الجامع الأزهر برهن ولا بغيره، ولا يعطى من ذلك شيئاً لمن يعرف فيه التفريط»[56].

خامساً: العاملون في المكتبة:

كل ما ورد أعلاه كان يرتبط بشكل أو بآخر بالعاملين بالمكتبة؛ إذ كانت المكتبات في عصر المماليك تسير وفق نظام محكم يضمن سيرها بالشكل الصحيح، وقد ارتبط ذلك بعدد من الموظفين كل واحد له مهمته الخاصة به.

1- خازن الكتب:

وذكر السبكي مهامه فقال: «وحُقَّ عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضَّنة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقوم

---

[54] ابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص261- 262.

[55] النشار: تاريخ المكتبات، ص204.

[56] النشار: تاريخ المكتبات، 207.

في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء»[57]، أي يقوم ويشرف على حفظها وترتيبها وتصنيفها وفهرستها وصيانتها وتنظيم الإعارة فيها ... .

وكان خازن الكتب يتصف بالأمانة والتدين والمعرفة بالكتب[58]، وفي وثيقة المدرسة البرقوقية: «ويرتب الناظر شخصاً من الصوفية المذكورين من أهل الخير والدين خازناً لما يكون بهذه المدرسة من الكتب»[59].

وكانت من مزايا الخازن أنه جميل الخط، فقد كان ينسخ الفهرس أحياناً، وربما كان ينسخ للمكتبة، وكان يشارك مشاركة فعلية في مقابلة النصوص[60]، وكذلك عليه المحافظة على الكتب وصونها من التمزق والتلف والغبار، ويقوم بتجليدها بإشراف الناظر، ويوزع الورق والحبر ويراقب القرَّاء، ويراقب تطبيق شروط الوقف[61]، فإن أهمل الخازن هذه الواجبات عدَّ مسؤولاً من حيث المبدأ، وعليه أن يُصلح ما سبَّبه من أضرار، وأن يعيد الكتب المفقودة، لكن هذه القاعدة التي قال بها الفقهاء وصاغها بعض الواقفين بقيت ضمن المجال النظري[62].

ومن أهم مهام خازن الكتب تنظيم استعارتها؛ إذ وحدد الواقفون نظام الاطلاع والاستعارة بدقة تامة بغية الحفاظ على الكتب من الضياع:

فمن الواقفين من منع الاطلاع على الكتب لمن عُرف بتفريطه بها.

واشترط بعضهم الآخر كتابة اسم المستعير على أن يُمحى بعد الإعادة زيادة في الحرص.

---

[57] السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص90.

[58] سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، دار النهضة المصرية، ص195.

[59] مصطفى: الوثائق والعمارة، ص29.

[60] العش: دور الكتب العربية، ص370.

[61] العش: دور الكتب العربية، ص370– 371.

[62] العش: دور الكتب العربية، ص371.

وحرَّم بعض الواقفين خروج الكتب من المكتبة نهائياً [63].

وفي حال سُمح بإخراج الكتاب من المدرسة، فكثيراً ما كان يشترط الواقف ألا يتم ذلك إلا برهن[64].

والأولى في الإعارة أن تكون للمحتاجين إلى الكتب والعارفين قيمتها[65].

وحُدد موعد فتح المكتبة في الأوقات المتوافقة مع الدروس المخصصة[66].

ونص بعض الواقفين على ضرورة عزل خازن الكتب إذا بدا منه أيَّ تقصير[67].

وسيتم التفصيل بقضية الإعارة في فقرة: نظام الاطلاع والإعارة.

2- المناول:

يعد مساعداً للخازن، إذ يقوم بإرشاد القرَّاء إلى مواضع الكتب، وإحضارها لمن يطلبها، ثم يقوم بإرجاعها إلى مكانها بعد الفراغ منها[68]، وتكون معرفته بالكتب سطحية، مثل معرفة أسمائها، وأماكن حفظها، ولا يتجاوز ذلك لمعرفة مضمون الكتب[69].

3- الناظر:

---

[63] أحمد بن علي المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط1، 1958م، ج1، ق3، ملحق 17، ص1046.

(64) السبكي: معيد النعم، ص88.

(65) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص167.

(66) محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة، ط1، 1980م، ص258.

(67) أمين: الأوقاف و الحياة الاجتماعية في مصر، ص257، 258.

(68) النشار: تاريخ المكتبات، ص145.

(69) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط3، 1966م، ص176. النشار: تاريخ المكتبات، ص145.

وهو أشبه بالمدير العام للمكتبة، وليس للخازن ومساعديه امتيازات إلا فيما يتعلق بالعمل الداخلي في المكتبة، وقد أُعطيت الامتيازات من جهة أخرى إلى ناظر المؤسسة، والناظر من حيث المبدأ النظري والواقع العملي هو الذي يتولى السلطة كلها، وليس الخازن إلا بديلاً عنه في المكتبة، وفي حال عدم الحاجة للخازن يقوم الناظر بإنجاز عمله[70]، وفي المكتبة الظاهرية علامة وقف على كتاب كان موقوفاً على مدرسة الحنابلة في القدس؛ إذ تقول: «والناظر فيه إمام الحنابلة بالقدس الشريف»[71]، وكان وضع الكتب تحت يد الناظر وإشرافه أكثر أمناً[72]، وتذكر وثيقةٌ وقفيةٌ بدار الحديث الأشرفية: «وعلى الخازن الاهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من فعل الوقف ما يفي بذلك، وكذا إذا مسَّت الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته»، وكذلك «للشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف، أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء، ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها»[73].

4– الورَّاقون:

وهم مجموعة النُسَّاخ والخطَّاطين والمجلِّدين وغيرهم ممن اتخذوا الوراقة عملاً لهم[74]. وقد جمع بعضهم بين النسخ والتجليد والتذهيب والزخرفة، مثل محمد بن محمد بن أحمد أبو الفتح الأزهري الرسَّام (ت 857هـ/ 1453م)[75].

(70) العش: دور الكتب العربية، ص375.

[71] العش: دور الكتب العربية، ص375.

[72] العش: دور الكتب العربية، ص375.

[73] السبكي: فتاوى السبكي، ج2، ص109– 111.

[74] السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص103– 104.

[75] السخاوي: الضوء اللامع، ج9، ص6.

وكان هناك موظفون آخرون مثل البوَّابين والفرَّاشين والطبَّاخين وغيرهم كما نصَّت بعض الوثائق المملوكية[76].

سادساً– نظام توزع المكتبات على مراكز العلم:

كان من أنظمة المكتبات توزعها على كل مراكز العلم مشكلة ما يشبه الشبكة العلمية، فأُلحقت المكتبات في ذلك العصر بالمدارس، والمساجد، والبيمارستانات، وأماكن المتصوفة، والترب، إضافة إلى المكتبات الشخصية المنزلية.

1_ مكتبات المدارس:

يقول جمال الدين بن نباتة المصري عن مكتبات مدارس دمشق في مقدمة كتابه (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون): «كنت أعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية أسفاراً فيها للمُطالع منجع، وللأفهام الناسية ذكرى تنفع، فلم يتهيأ أن أعار منها كتاباً ولا أراجع من ألسنة حروفها خطاباً»[77].

ومن هذه المكتبات مكتبة دار الحديث الأشرفية[78]، وكان فيها كتب كثيرة نفيسة[79].

وممن أوقف كتباً فيها القاضي أمين الدين الأشتري أبو العباس أحمد بن شمس الدين الشافعي (ت681هـ/ 1282م)[80]، وكذلك محمد بن عبد الخالق الأنصاري الدمشقي (ت690هـ/ 1291م) الذي أوقف كتبه فيها[81].

---

[76] النشار: تاريخ المكتبات، ص150.

[77] حبيب الزيات: خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، مطبعة المعارف، مصر، ص2.

[78] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص202. عبد القادر بن محمد النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 1990م، ج1، ص15.

[79] تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناجي، عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1992م، ج4، ص179– 180.

[80] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص587.

[81] النعيمي: الدارس في تاريخ الدارس، ج2 ص1.

ومكتبة المدرسة البادرائية: وقد قال ابن كثير سنة (655هـ/ 1257م): «عمل عزاء واقف البادرائية، الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي، وقد أوقف أوقافاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب حسنة نافعة»[82]، وقد عمل جمال الدين محمد بن علي بن صالح المصري (ت701هـ / 1301م) خازناً للكتب فيها[83].

ومكتبة المدرسة الصدرية، واقفها الصدر بن المنجا الرئيس أبو الفتح أسعد بن عثمان بن وجيه الدين أسعد بن المنجا التنوخي الحنبلي (ت 657هـ/ 1259م))[84]، وممن أوقف كتبه فيها محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (ت 751هـ/ 1350م)[85] [86].

ومكتبة المدرسة الظاهرية الجوانية: وقد بناها الملك الظاهر بيبرس ركن الدين أبو الفتح بيبرس التركي البندقدار الصالحي (ت676هـ/ 1277م)[87]، وممن أوقف كتبه فيها شيخ العراق عز الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عمر الواسطي (ت694هـ/ 1295م)[88].

ومكتبة دار الحديث القوصية: وبانيها شهاب الدين القوصي إسماعيل بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي الشافعي (ت653هـ/ 1255م)[89]، وقد كانت بها خزانة

---

[82] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص341.

[83] الدرر الكامنة: ابن حجر، ج4، ص184– 185.

[84] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص389.

[85] ابن كثير: البداية والنهاية، ج18، ص450– 523.

[86] النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص70.

[87] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص530– 535. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص264.

[88] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص680– 681. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص269.

[89] العبر في خبر من غبر: الذهبي، ج5، ص214. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج1، 72.

كتب، وممن أوقف كتبه فيها علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي مؤرِّخ الشام (ت739هـ/ 1338م)[90].

ومن ذلك مكتبة المدرسة النورية في حلب: ومن الذين أوقفوا كتبهم عليها أبو بكر بن أحمد بن علي المعروف بالظهير (ت553هـ/ 1158م)[91]، ومحمد بن علي بن ياسر الأنصاري نزيل حلب (ت563هـ- 1167م)، وقد تولى خزانة الكتب في المدرسة النورية، وأوقف عليها[92].

والمدرسة الشرفية في حلب: وكان بها خزانة كتب، ومن ضمن هذه الكتب كتاب (الأم) للشافعي، و(تفسير الثعلبي)، و(الحاوي الكبير)، و(الإبانة)، و(التتمة)، وكانت تضم جميع مؤلفات العالم الشهير أبي حامد الغزالي.

والمدرسة الخاتونية في حماه: بنتها المؤنسة خاتون بنت الملك المظفر محمد عمّة الملك أبي الفداء (ت703هـ/ 1303م)، وأوقفت عليها وقفاً جليلاً وكتباً[93].

وكذلك أقبل الرهبان في حماة على التأليف والتصنيف ونسخ الكتب، وقد كانت هناك مكتبات في الكنائس والأديرة غنية بالمؤلفات المسيحية التي تتناول موضوعات دينية وعلمية وأدبية[94].

ومن مدارس القدس المدرسة الجركسية: وأُوقفت فيها سنة (748هـ/ 1347 م) كتب في خزانتها[95]. والمدرسة الطولونية: [96]، وقد كانت بها خزانة كتب، ومن كتبها

---

[90] ابن كثير: البداية والنهاية، ج18، ص412- 413.

[91] عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه، كراتشي، ج2، ص271.

[92] أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج2، ص158.

[93] محمد كرد علي: خطط الشام، دار العلم، بيروت، ط2، 1971م، ج6، ص124.

[94] أحمد خالد جيده: المدارس ونظم التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية، ص184- 185.

(الترغيب والترهيب) للمنذري زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله (581– 656هـ/ 1185– 1258 م)، وقد نُسخ سنة (831 هـ/ 1427م) بخطِّ أحمد بن محمد القلقيلي في المدرسة الطولونية في المسجد الأقصى[97].

2_ مكتبات المساجد:

كانت في الجامع الأموي في عصر المماليك مكتبات متعددة، وقد جُمعت من الزاوية الغربية، ومن عند باب الكلَّاسة الباب الشمالي للجامع، ومن أروقة الجامع في عهد الملك المعظم عيسى بن العادل (ت 656هـ/ 1258م) ووُضعت في مشهد عروة[98]، ويمكن أن نقدِّر عدد الخزائن التي كانت موجودة بجامع بني أمية بأكثر من عشرين خزانة؛ أي أكثر من خمسة آلاف مجلد[99].

وفي مدينة حلب كانت هناك عدة مكتبات ملحقة بالجوامع، ومنها خزانة مصحف الجامع المعروف بالجامع الأموي[100]، وجامع منكلي بغا الذي أنشأه منكلي بغا سنة (767هـ – 1365)، وقد أوقف عليه كتباً نفيسة، وخزانة هذا الجامع متقنة محكمة فيها الصنائع العظيمة على طريقة النجَّارين في ذلك العصر[101].

---

[95] خضر إبراهيم سلامة: فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، ج2، ص 157.

[96] مجير الدين أبو اليمن القاضي الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح: عدنان يونس، مكتبة دنديس، عمان، 1999م، ج2، ص40.

[97] سلامة: فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، ج2، ص 68.

(98) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص105– 106.

[99] العش: دور الكتب العربية، ص235.

[100] زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996م، ج2، ص305.

[101] سبط ابن العجمي الحلبي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، تح: شوقي شعث، فالح البكور، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1996م، ج1، ص242.

وجامع سليمان الكردي: وكان مطلاً على خندق قديم داخل البلد، وكانت فيه خزانة خلف المنبر، فإذا قضيت صلاة الجمعة أُدخل المنبر الى هذه الخزانة[102].

وفي حماة كانت هناك مكتبات كبيرة في المساجد ملأت بالكتب الدينية والعلمية والأدبية، كالجامع النوري الذي بناه نور الدين زنكي سنة (558هـ/ 1162م) على الضفّة الغربية للعاصي، وجامع السلطان الذي بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفداء (ت726هـ/ 1325م)، في محلة الدباغ، وما يزال مكان المكتبة واضحاً في جداره الغربي إلى اليوم[103]، وبنى الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء المؤرخ (ت732هـ/ 1332م) جامعاً حسناً بظاهر حماة، وسمَّاه جامع الدهشة، ووقف عليه كتباً قيل: إنَّها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون، وإنَّه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً[104]، وقد كان بهذا الجامع سبعة آلاف مجلد[105]، وكان في بعلبك مسجد يعرف بمسجد الحنابلة، وفيه خزانة لحفظ الكتب.

واشتهرت القدس بمساجدها، وأهمها كما هو معروف المسجد الأقصى، وقد أوقف عليه كتب كثيرة[106]، وكذلك الجامع الكبير الصلاحي في نابلس[107].

---

[102] ابن العجمي: كنوز الذهب، ج1، ص249.

[103] إبراهيم الأحمد: نيابة حماة في العصر المملوكي، أطروحة دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، إشراف: وفاء جوني، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، (2011– 2012م)، ص247.

[104] تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي: ثمرات الأوراق، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، ص125.

[105] محمد كرد علي: خطط الشام، ج6، ص61.

[106] سلامة: فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، ج2، ص199. دور الكتب العربية: العش، ص276.

[107] سلامة: فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، ج2، ص 169.

3_ مكتبات البيمارستانات:

أُلحقت المكتبات بالبيمارستانات أيضاً، كالبيمارستان النوري الذي أنشأه نور الدين زنكي (ت 569هـ/ 1173م)، وقد أوقف جملة كثيرة من الكتب على الخزانتين اللتين بصدر الإيوان، وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون ويجلسون فيه ويتداولون كتبه[108].

والمدرسة الدخوارية الطبية: أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار (ت628هـ/ 1230م) سنة (621هـ/ 1224م)، وقد نسخ كتباً كثيرةً بخطِّه بلغت أكثر من مئة مجلد في الطب وغيره[109]، وأوقف هذه الكتب على المدرسة للأطباء[110].

وفي حماة البيمارستان النوري: الذي أنشأه نور الدين محمود الزنكي سنة (550هـ/ 1155م) كانت به قاعة تحتوي على خزانة كتب، ومكاناً لإلقاء المحاضرات والدروس[111].

4_ مكتبات الخوانق والربط:

وأُلحقت المكتبات أيضاً بأماكن المتصوفة، فهذه الخانقاه السميساطية بدمشق أوقف أهل الخير كتباً كثيرة على مكتبتها[112].

---

[108] موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص628.

[109] النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص100. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص728.

[110] العش: دور الكتب العربية، ص263.

[111] محمد كرد علي: خطط الشام، ج6، ص161.

[112] ابن كثير: البداية والنهاية، ج18، ص156– 157.

وكان للخانقاه الباسطية بالقدس مكتبة فيها نص وقفية لكتاب (الجامع الصحيح) للبخاري، وعليه ما يدل على أن رجلاً يدعى محمد بن أبي الحياة قد أنهى قراءته فيها في 12 شعبان سنة (838هـ/ 1434م)[113].

وذكر ابن كثير في حوادث سنة (699هـ/ 1299م) أنّ التتار نهبوا كتباً كثيرةً، ومنها الكتب التي في الرباط الناصري عند سفح قاسيون بدمشق[114].

5_ مكتبات الترب:

والشيء الضي يلفت النظر في عصر المماليك أن عدداً من المكتبات قد أُلحقت بالترب التي كانت تُشكل أضرحة للحكام، كالتربة الأشرفية في دمشق، وكان فيها خزانة كتب[115]. والتربة البهنسية بسفح قاسيون، وكان فيها مكتبة موقوفة عليها[116].

وأوقف الجناب العالي محمد بن السيفي أرغون شاه الناصري سنة (760هـ/ 1358م) على تربة أبيه التربة السيفية ربعة شريفة (الربعة ما كان يُطلق قديماً على القرآن عندما كان مقسماً إلى أربعة أقسام)، وهذه الربعة توجد اليوم في متحف دمشق[117].

6- المكتبات الخاصة:

ووُجدت المكتبات الشخصية الخاصة، واشتملت هذه المكتبات على عدد كبير من الكتب في شتى أنواع العلوم والمعارف، ووضعت تحت تصرف طلبة العلم يطلعون على

---

[113] سلامة: فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، ج2، ص 61.

[114] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص722.

[115] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص142.

[116] ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص189. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص183.

[117] دور الكتب العربية: العش، ص268.

ما فيها وينهلون منها، وارتبطت بنظام خاص يحفظها ويصونها وينظم الاطلاع على محتوياتها وتداولها [118].

وهي كثيرة في عصر المماليك؛ مثل مكتبة الشيخ الفقيه علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني البعلبكي الحنبلي (ت701هـ/ 1301م)[119]، ومحمد بن محمد بن عبد الله بن مالك شمس الدين (ت 719هـ/ 1319م) الذي لازم الجامع الأموي أكثر من أربعين سنة، وله خزانة وبيت بالمئذنة الشرقية[120].

وأحمد بن سعد بن محمد أبو العباس العسكري الأندرشي الصوفي (ت750هـ/ 1349م)، فقد أوقف كتبه على أهل العلم[121]. وعلي بن أيوب بن منصور علاء الدين المقدسي الشافعي (ت748هـ/ 1347م)، ولما بيعت كتبه في حياته تعالى الناس في أثمانها، وبالغوا في قيمتها لصحتها وحسنها وإتقانها[122].

ومحمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية (ت751هـ / 1350م)، وما جمع أحد من الكتب ما جمع؛ لأنه أنفق عمره في تحصيل الكتب، وكان عنده من كل شيء في فنون العلم بكل كتاب نُسخاً عديدة، وأقام أولاده شهوراً يبيعون منها، غير الذي أبقوه لأنفسهم[123].

ومن تلك المكتبات مكتبة إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن سعد الله بن جماعة (ت 790هـ / 1388م)، إذ «اقتنى من الكتب النفيسة بخطوط مصنفيها وغيرهم ما لم يتهيأ لغيره»[124]. وكان محمد بن شاكر الكتبي (ت 764هـ / 1362م) يتكسب من تجارة

---

[118] المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص212.

[119] الصفدي: أعيان العصر، ج3، ص476– 477. ابن كثير: البداية والنهاية، ج18، ص13.

[120] الصفدي: أعيان العصر، ج5، ص165.

[121] الصفدي: أعيان العصر، ج1، ص216– 217.

[122] ابن حجر: الدرر الكامنة، ج3، ص99، الصفدي: أعيان العصر، ج3، ص305.

[123] الصفدي: أعيان العصر، ج4، ص366– 370.

[124] ابن حجر: الدرر الكامنة، ج1، ص40.

الكتب فرزق منها مالاً طائلاً، وخلَّف منها جملة كبيرة[125]. وذكر ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ / 1311م) أنَّ والده مات وترك له بخطه خمس مئة مجلد[126]. ووقف الطبيب المشهور ابن النفيس الدمشقي (ت 687هـ / 1288م) كتبه على البيمارستان المنصوري [127].

الخاتمة:

لو أخذنا علم التاريخ مثالاً عن انتشار الكتب في عصر المماليك، فسنجد المستشرق جيب يقول: «يتركز الإنتاج الأكبر في عصر المماليك في مجال التأريخ ... وإن مجرد ذكر أسماء المؤرخين وأهم أعمالهم سيأخذ من وقتنا الكثير»[128].

لذلك فإن أغزر إنتاج تاريخي على مر كل العصور أتانا من عصر المماليك، وفي ذلك العصر عاش ابن خلدون، وابن خلكان، والذهبي، والصفدي، والنويري، والعمري، وابن قيم، وابن بطوطة، والقلقشندي، والمقريزي والسيوطي، والسخاوي، وابن كثير، والكثير من أمثال هؤلاء.

وهذا كله لا يجعلنا نستغرب عندما نقرأ عن انتشار الكتب والمكتبات في ذلك العصر، وكيف سارت وفق أنظمة راقية ضمنت ترتيبها وديمومتها وسلامتها.

وهذا كله أثار إعجاب كثير من مستشرقي الغرب، فمثلاً كتب الدكتور ماكس مايرهوف يقول: «في القاهرة ودمشق والموصل وبغداد وكذلك في إيران والهند يوجد مكتبات أخرى كبرى تحتوى آثاراً قيمة نفيسة، لم يفهرس لكثير منها، والمطبوع المنشور منها أقل من القليل.

---

[125] ابن حجر: الدرر الكامنة، ج4، ص71، 72.

[126] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج5، ص57، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج5، ص32.

[127] ابن حجر: الدرر الكامنة، ج5، ص197.

[128] Gibb (H.A.R):Arabic Literature ,London, Oxfored, p146.

وحتى فهرسة مكتبة إسكو ريال في إسبانيا التي تشتمل على شطر كبير من الكتب والرسائل في العلوم الإسلامية ناقص لم يكمل بعد. وطبيعي أن الذي كُشف عنه أخيراً يلقي الضوء على التاريخ القديم للعلوم في العالم الإسلامي، ولكن لا يكفي ذلك قطعاً، وسيدرك العالم في المستقبل أهمية العلوم الإسلامية أكثر من ذي قبل».

وكتب جوزيف ماك كاب: «وكان المجتمع . وحتى الطبقة السفلى منه متعطشاً لقراءة الكتب، فكان العمَّال يقنعون بطعام قليل ولباس حقير ليتمكنوا من شراء الكتب حتى بآخر قطعة من نقودهم، حتى كان لأحد العمال مكتبة كبرى يسرع إليها العلماء باشتياق، ونجد الموالي المتحررين أو أبناءهم من مشاهير العلماء يومئذ، وكذلك نجد كثيراً من النساء في زمرة مشاهير ذلك العهد»[129].

[129] مجتبى اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، تر: محمد الغروي، قم، مركز الثقافة الإسلامية في العالم، ص135– 137.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1. إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتبة التجارية، بيروت.
2. أبو الفداء اسماعيل بن علي: المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
3. أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل: الذيل على الروضتين، تح: عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط2، 1974م.
4. أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1997م.
5. أحمد بن علي المقريزي: خطط المقريزي، تح: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2003م.
6. أحمد بن علي المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط1، 1958م.
7. أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.
8. اسماعيل بن كثير: البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب للطباعة، الرياض، ط2، 2003م.
9. بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تح: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، ط1، 2008م.

10. تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناجي، عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1992م.
11. تاج الدين عبد الوهاب السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، تح: محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، دار الكتاب العربي، مصر، ط1، 1948م.
12. تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي: ثمرات الأوراق، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، مصر، ط1.
13. تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي: فتاوى السبكي، تح: حسام الدين القدسي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.
14. زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996م.
15. سبط ابن العجمي الحلبي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، تح: شوقي شعث، فالح البكور، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1996م.
16. شمس الدين محمد بن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب، تح: محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت.
17. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
18. شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جار الحق، مطبعة المدني.
19. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1998م.

20. عبد الباسط بن موسى العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد، المكتبة العربية، دمشق، ط1.
21. عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، ط2، 1988م.
22. عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه، كراتشي.
23. عبد القادر بن محمد النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 1990م.
24. مجير الدين أبو اليمن القاضي الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح: عدنان يونس، مكتبة دنديس، عمان، 1999م.
25. موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
26. ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم الأدباء، تح: عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1999م.

المراجع:References :

1. **إبراهيم الأحمد:** نيابة حماة في العصر المملوكي، أطروحة دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، إشراف: وفاء جوني، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، (2011– 2012م).
2. **أحمد خالد جيده:** المدارس ونظم التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية.
3. **أحمد شلبي:** تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط3، 1966م.
4. **السيد النشار:** تاريخ المكتبات، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993م.
5. **إياد خالد طباع:** المخطوطات الدمشقية، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2009م.
6. **حبيب الزيات:** خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، مطبعة المعارف، مصر.
7. **خضر إبراهيم سلامة:** فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت.
8. **زيغريد هونكه:** شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ط9، 2000م.
9. **سعيد عبد الفتاح عاشور:** مصر في عصر دولة المماليك البحرية، دار النهضة المصرية.
10. **عبد الستار الحلوجي:** دراسات في الكتب والمكتبات، مكتبة صباح، جدة، ط1، 1988م.
11. **عبد العظيم رمضان:** تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

12. **عبد الوهاب عزام:** مجالس السلطان الغوري صفحات في تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2010م.
13. **عمر رضا كحالة:** العلوم العملية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق، 1972م.
14. **مجتبى اللاري:** الإسلام والحضارة الغربية، تر: محمد الغروي، قم، مركز الثقافة الإسلامية في العالم.
15. **محمد أمين:** الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة، ط1، 1980م.
16. **محمد كرد علي:** خطط الشام، دار العلم، بيروت، ط2، 1971م.
17. **محمد ماهر حمادة:** المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1981م.
18. **مهندس صالح لمعي مصطفى:** الوثائق والعمارة، دار النهضة العربية.
19. **يوسف العش:** دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، تر: نزار أباظة، محمد صباغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.

20. Gibb (H.A.R): Arabic Literature ,London, Oxfored.